رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

—«»—

تمهيد ٠ — محمد ظلي افندي المعروف باوليا جلبي اي الولي الفاضل سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ وتوفي في سنة ١٠٩٠) زار أكثر الامصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الاطراف في ذلك العهد ووضع في وصف رحلاته العديدة بضعة مجلدات لم يطبع منها الا القليل وهي تعد عند الترك من الآثار القيمة لما تضمنته من بيان عمران البقاع والبلدان التي شاهدها ووصف مناظرها ومبانيها وأحوال سكانها وصفاً لا بأس فيه تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والاحاديث الخرافية وذكر الاضرحة والكرامات التي كان يهتم الجلبي بها كثيراً شأن رجال تلك الايام ٠

قيل ان اوليا جلبي لم يوفق في صباه في تلقي العلوم وان جمال صوته ساقه للولع بفنون الادب والموسيقي الى ان كان ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ يتلو القرآن في جامع اياصوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه الى قصره وجعله من ندمائه ٠ الا أن تلك الابهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبي في القصر كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ٠ فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مع خفته وظرفه وحبه للحرية والانطلاق وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول في الامصار تارةً منفرداً وتارةً مع كبار الوزراء والقواد لاسيما مع خاله ملك احمد باشا احد صدور ذلك العهد البارزين . ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذذاك في الشرق والغرب وحضر الحروب ووصفها وبهذا تسنى له ان يرى اكثر بلاد الاناضول والروم ايلي ووصل الى جزيرة كريت وجال ايضاً في أجزاء بعض ايران والقفقاس وجنوبي روسية ومولداويا وترانسلفانيا ودالماتزيا وهنغاريا والنمسا والمانيا وهولاندة .

وقد زار هذه البلاد الاوربية وهو في بطانة السفير العثماني المرسل الى هولاندة . ولم تفته من البلاد العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة الى دمشق صحبة مرتضى باشا المعين نائباً على الشام وذهب مرة أخرى معه لما جرد جنده لجباية الاموال الاميرية من الدروز وغيرهم في جنوبي جبل لبنان وجبل الجليل وأرسله الباشا في غيرها بمهمة الى غزة فمر باكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية وعرفها ووصفها . وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في اوربا فترجموا منها ما يختص ببلادهم الى اللغات الالمانية والانكليزية والمجرية . لذلك أحببت ان أحذو حذوهم فأنقل الى لغتنا وصف البلاد العربية التي زارها لحسباني ان في ذلك ما يفيد معرفته من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعية التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي وحذفت منها ما ليس في ذكره نفع وعلقت عليها نبذاً في ترجمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاشخاص وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه اوحولها مما فاته بيانه ووصفت منها بعض ماتسنى لي زيارته ورؤيته أوالعثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة وعنيت بسرد الفرق بين حالتها حينما مرَّ بها الجلبي وحالتها الحاضرة ليكون ذلك تكملة لهذه الرحلة واقتداءً بمايكتبه مؤلفو كتب الأدلة للسائحين في بلادنا كايز امبر وشوفه ومونمارسه وبيديكر وغيرهم من أفاضل الفرنج الذين لم يقتف أثرهم احد من كتابنا بعد حتى أصبح هؤلاء الغربيون الغرباء يعرفون بلادنا ومسالكها وخططها ومصانعها وعادياتها وحالات أهلها وطبائعهم معرفة تامة ليس لاكثر مفكرينا نصيب منها وماذلك الا لوفرة ماعندهم من هذه الكتب وأشباهها وفقدانها لدينا بالكلية ٠

وقبل الشروع بسرد الرحلة لابد من التنويه بان المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك العهد لم يذكر اسم أوليا جلبي على الرغم من ان هذا جاءَ الشام وساح فيها ومكث في دمشق مدة ولم يترجم ايضاً مرتضى باشا الذي جاءَ الجلبي في حاشيته وظل والياً في دمشق نحو سنة وقد تحريت فلم أعثر على ذكر هذا الوزير الاعرضاً في صدد ترجمة عبدالسلام المرعشي احد أعيان الجند بالشام وصاحب الحول والطول في ذلك العهد ٠ قال المحبي : وكان عبدالسلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانيةً في سنة سبع وستين والف وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الاولى فأخذ يدبر أشياءَ لمدافعته ثم أداه اجتهاده الى ان جمع جمعاً عظيماً في الجامع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأُموي وأَحضر اكثر اهل البلدة وذكر لهم ظلمه وأَشار عليهم بان لا يرضوه حاكماً عليهم وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار لم يخرج بعد من دمشق وكان مقيماً بالميدان الاخضر فذهب القوم اليه وأبرموا عليه ان يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر وأرسلوها الى الابواب السلطانية وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ولما وصل اليه وهو في الطريق ارسل الى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع فقرر في نيابة الشام بخط شريف فلم يمكنوه واظهروا الممانعة وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام وعزموا على محاربته وطلعوا الى قرية دوما وهم في جيش عرمرم وكان مرتضى باشا وصل الى القطيفة فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق » اهـ . فيظهر من هذا ان مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين الاولى في سنة ١٠٥٨ حينما جاء معه أَولياجلبي ودخل بموكب عظيم واستقبلته جنود دمشق وأَعيانها استقبالاً فخماً كما سيأتي ذكره . على ان هذا الباشا كان على مايظهر جباراً عاتياً فعزل بعد سنة لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ فلم ترض به جنود دمشق وأهلها واضطروه للرجوع فتقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه الذين قادوا هذه الفتنة وكان من جملتهم الامير منصور الشهابي وابن عمه الامير علي فقتلتهم جميعهم تباعاً وصادرت أموالهم وأملاكهم وفاقاً لعوائد تلك الايام .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان أَولياحلبي يتدبر قضاء فريضة الحج فانتهز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام فالتحق بقافلة الباشا المؤلفة من مئات الحواشي والاتباع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والجند والوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والامتعة وغادر مدينة اسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ (١) وراح يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الاناضول كأزنيق واسكي شهر وآق شهر وقونيـة وآذنة ومسيس « المصيصة » وغيرها الى أن أشرف على خليج الاسكندرونة وسار موازياً شاطئ البحر الرومي فوصل الى «بيّاس» وهي الآن آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية (٢) .

(١) في هذه السنة جلس السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان وهو صبي ابن سبع سنوات .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : بيّاس مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصيصة «وصحيحه انها شمالي انطاكية وجنوبي المصيصة» بينها قريبة من البحر بينها وبين الاسكندرية «وصحيحه الاسكندرونة» فرسخان قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أهواله ... وركبت هول الليل في بيّاس
وقطعت أطوال البلاد وعرضها ... ما بين سندان وبين سجاس

والى الشمال الشرقي من بيّاس الكنيسة السوداء والهارونيـة نسبة الى هرون الرشيد الذي اختطها وكانتا من الثغور في طرف جبل اللكام قاله ياقوت الحموي في المشترك . وكذلك كان في هذه الكورة التي تدعى قيليقية التابعة الآن لجمهورية تركية قلاع عديدة ذكرت مراراً في التـاريخ الاسلامي كانت تتعاورها أيدي المسلمين والأرمن والروم في حروبهم وغاراتهم مدة قرون الى ان ثبتت في يد الترك ذكرمنها ابوالفداء في تقويم البلدان أسماء سيس التي كانت عاصمة ملك الارمن والمصيصة «مسيس» على جانب نهر جيحان بناها ابوجعفر المنصور واياس على الساحل وبرس برت شمالي سيس وتل حمدون بالقرب من جيحان وفي شرقي هذا التل حصن حموص وسرفند كار وفي شمالي جيحان عين زربة « آناوارزا» هذا عدا عن آذنة وطرسوس وهذه على مقربة من الثغور أوالدربندات في جبال طوروس التي كانت تفصل بين المسلمين والروم . وهذه البلاد كان يدعوها المسلمون الثغور ثم دعوها ببلاد ابن لأون ملك الارمن . وقد تغيرت اسماء اكثر هذه القلاع الآن واصبحت تعرف باسماء تركية كطوبراق قلعة وبيلان قلعة وقره سيس قلعة الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد وصف قلعة بيّاس ودورها وبساتينها ودار مكسها وميناءها وخانها وجامعها الذي بناه محمد باشا الصوقوللي الصدر الاعظم الشهير وأثنى على اهلها لانهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ويحرسون المسالك والمضائق الممتدة شمالي بياس وجنوبها من شر لصوص الجبال ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم من بر الترك الى بر الشام وبالعكس ونوّه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها واضطرار أهلها الى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم وذكر ان الوفًا من الاكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ويطلقون مواشيهم ترعى أعشابها الغضة وتشرب مياهها النميرة(١) .

(١) هذه نجود جبل اللكام الذي يدعوه الافرنج آمانوس وعامة الترك كاورطاغي ودعته حكومتهم جبل البركات ، وسلسلة اللكام تعد عند اكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين الشام والاناضول ويمر الآن في وسطها من الغرب الى الشرق الحد الذي اعتبر رسميًا بين جمهورية تركيا وبلاد الشام الواقعة تحت الانتداب الافرنسي ، وهي تنفصل في الشمال عن جبال مرعش وسيس بنهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن جبل الاحمر الممتد شمالي انطاكية وغربيها ، وفي هذه السلسلة الشامخة أودية ووهاد سحيقة ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية لجودة هوائها وغزارة مياهها وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ووفرة حراجها مما لانظير له في لبنان أو غيره ، وفيها قمم شاهقة أعلاها الصخرة البيضاء (آق قيا) ٢٥٠٠ متر ومغبر اوموغر ٢٢٦٧ متراً يجللها الثلج في معظم أيام السنة وتشرفان على سهول حلب وآذنة على السواء ، وفيها مضائق كانت تعبر منها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وكان القدماء ولاسيما الارمن أقاموا في النقاط الحاكمة على هذه المضائق الوعرة تلاعًا كانوا يشحنونها بالمقاتلة لمنع الاعداء من المرور ، منها في الشمال وفي منتصف الجبال « قلعة حجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال اوليا جلبي : وبعد ان مكثنا في بياس يومين غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ووجدنا في قربه على شاطئ البحر تكية باسم الشيخ عبد القادر الكيلاني عامرة الاركان

شغلان» صعبة المرتقى تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ومثلها في الشمال وعلى مقربة من اسكندرونة «قلعة المركز» وفي الشرق على حاشية سهل العمق « قلعة دربساك » ومثلها في الجنوب «قلعة بغراس» . ولما جاء الصليبيون استولوا على هذه القلاع وأقاموا فيها الفرسان الهيكليين وظلت تتعاورها أيدي الارمن والروم وصليبيو انطاكية الذين لم ينفكوا يتنازعون أمرها فيما بينهم كما ان المسلمين في عهد بني حمدان وبني أيوب والمماليك لم يتوانوا عن مهاجمتها حينما كانوا يغزون بلاد الارمن والروم ويقابلهم هؤلاء بالمثل فيتخذ كل منهم هذه القلاع نقاطاً للاستناد عند زحفه شمالاً أو جنوباً وظل هذا الأخذ والرد مستمراً الى ان جهز الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سيس قاعدة بلاد الارمن اذذاك وولى قيادة هذا الجيش الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود صاحب حماة فجاء فاستولى على هذه القلاع وأباد الفرسان المرابطين فيها ودمرها ثم أتم غارته على سيس وحواليها ورجع ظافراً . هذا وكان جبل اللكام في اول عهد الاسلام موطناً لقوم عرفوا « في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية وقد صالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم يمالئونهم على المسلمين وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشام لاسيما لبنان وعرفوا بالمردة فاضطر عبد الملك بن مروان الى أن صالحهم » ذكره في معجم البلدان . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لا يزالون على الفطرة معروفون بصدق المعاملة يقطنون في الشتاء في قراهم المخبأة في بطون الفجاج قرب السفحين الغربي والشرقي وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال أوليا چلبي — الى المرابع والنجود المرتفعة لرعي الماشية وقطع الحطب ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة اللجاة في شمالي العمق وهم أهل وبر واكارون . وجبال اللكام كانت وما تزال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آهلة بالدراويش . ثم استأنفنا المسير نحو القبلة فمررنا بتكية ثانية أصغر من الاولى فيها بضعة دراويش ينتسبون الى الطريقة البكتاشية ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر تجتمع مياهه من الاودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها وتصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر مررنا بقلعة تدعى «قلعة المركز» تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال مربعة الشكل ذات بناء جميل قيل أنها من عهد القياصرة(١) . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١

غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) على الرغم من انكباب الامم الغابرة على قطعها لبناء الاساطيل والمعابد والقصور وهي قد اشتهرت بوفرة مافي منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والارز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب والاشجار المثمرة البرية كالتفاح والأجاص والزعرور ويكثر الدلب والصفصاف المستحي والجوز والدردار في الأودية الرطبة كما ان الزمزريق والقطلب ولاسيما اللبنة منتشرة وكثيفة في اكثر الاماكن وفي قرب بياس في لواء اسكندرونة منجم كبير يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والآميانت والمانغانز والنحاس لكنها بنسبة قليلة لا تفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .

(١) اذا خرج السائح من بياس موازياً شاطئ البحر يصادف على بعد كيلومتر منها نهر بياس الذي ذكر أوليا چلبي جسره وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر متسلقاً قمة مغبر هابطاً ضفة نهر الاسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلاّن منبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر وفيه يمر النهر المسمى (دكرمن دره) وقد ذكر اوليا چلبي جسره . ويرتأي بعض الباحثين ان معركة ايسوس الكبرى التي وقعت بين دارا ملك الفرس واسكندر المكدوني وغلب فيها دارا وكانت سبباً لاستيلاء الاسكندر على بلاد الشام حدثت في هذا السهل الواقع جنوبي بيّاس والذي عليه اكثر المحققين بانباوتعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالامان وهي الآن تابعة لنيابة بياس وفيها قائد وعدة جنود وحولها كروم وبساتين وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد ان اجتزنا هذه القلعة مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى صقال طوتان (قابض الذقون) لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق وجلهم من أشرار الاكراد الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ان يكثروا من الحيطة والحذر . وبعد ان مررنا بمكان يدعى آجي جاي (النهر المر) وصلنا بعد ساعتين ونصف الى قلعة اسكندرون (١) .

شمالي بياس بالقرب من نهر دلي شاي . اما التكايا التي ذكرها الچلبي فقد دثرت . وبعد مسير عشرة كيلومترات يصادف السائح أطلال « قلعة المركز » التي ذكرها الچلبي ماثلة بجدرانها وببعض أبراجها الضخمة وهي احدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيرها وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم القرية القريبة منها « صاري سكي » وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم أوحصن كودفروا وثمة في شمالي هذه القلعة أطلال جدار يمتد من الغرب الى الشرق يدعوه الفرنج جدار السلوقيين لايزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة وقسم آخر في سفح الجبل وكان هذا الجدار على مايظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال الى الجنوب او بالعكس .

(١) بعد مغادرة قلعة المركز يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجاً الى ان يقترب ذيل جبل اللكام من البحر فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب قيليقية والصليبيون Portella وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين سورية وقيليقية وكان فيه للملوك الارمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة مد الالمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من اسكندرونة الى (طوبراق قلعة) فحلب . ويعلو الصخور التي عن يمين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصف اسكندرونة — سميت هذه البليدة باسم بانيها اسكندر الكبير وبعد ان خربتها عوادي الزمن عمرت في اول عهد الاسلام(١) ثم خربت مرة أخرى وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الافرنج فاسترعى هذا

المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ويزعمون ان الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطئ هذا المضيق . على حين انها ليست الا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين او الرومانيين كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين او للاشارة اليه . وفي رواية ان جسد الاسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرت من تحته قواده وجحافله . وقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان .

(١) قال ابو الفداء : باب اسكندرونة من جند قنسرين . قال احمد الكاتب : وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومي بالقرب من أنطاكية بناها ابن ابي دؤاد الايادي في خلافة الواثق . قلت ان اسكندرونة كانت موجودة قبل الاسلام . وقد ذكرها المؤرخان اليونانيان هرودتس و كسنفون باسم ميرياندروس . الا ان هذه كانت خارج البلدة الحالية والى الجنوب الشرقي منها وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين . وقد اكتشفوا في الايام الاخيرة كثيراً من آثار ميرياندروس وفسيفسائها . اما اسكندرونة الحالية فهي بلا ريب من عهد الاسكندر شيدها خلفاؤه وسموها باسمه لتمجيد النصر الباهر على دارا ملك الفرس في وقعة ايسوس . ولعل ابن ابي دؤاد الذي ذكره احمد الكاتب رممها بعد خراب قد يكون أصابها في ذلك الحين . يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة عشر الفاً وهم بازدياد اكثرهم من الأرمن اللاجئين من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ . وقد جعلت منذ احتلال الافرنسيين قاعدة لمتصرفية شبه مستقلة تتبع حكومة دمشق في بعض الامور وتشمل الجزء الشمالي الغربي من ولاية حلب القديمة وأُلحق بها ثلاثة أقضية اسكندرونة وأنطاكية وقرق خان وأُلحق بالقضاء الاول ناحية اسكندرونة وعرسوز وبالثاني نواحي أنطاكية والسويدية وعوافية وجبل موسى و كسب والاوردو وقصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني والحرية وباثالث نواحي قرق خان وجاجيلر والريحانية وبيلان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان احمد خان فشرع ببناء قلعة حصينة في اسكندرونة ولكن السلطان نقم عليه بعد حين لتهامل بدى منه فقتله وبقيت القلعة دون اكمال · وحبذا لو أكملت هذه القلعة وجدد عمران اسكندرون لأنها فرضة بحرية ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين · وقد علمت انه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والافرنج اكثر من مائتي غليون · هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة جعل الافرنج يتقاعسون عن دفع المكوس الى الملتزم الذي التزمها بمائتي حمل(١) · ولاسكندرونة قاضي يجبي من قراها خمسة أكياس(٢) ولها ميناء لطيف لولا ان غربيه مكشوف يأتي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع · والى الغرب من ميناء اسكندرونة وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً(٣) يوجد رأس اندراوس في جزيرة قبرص وقد قيل لي انه اذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج · اما انا فلم يتسن لي رؤية ذلك · ويكثر وجود الافرنج والروم في اسكندرونة لهذا لاتجد فيها جامعاً او خاناً او حماماً او سوقاً سوى الخانات فانها كثيرة · وقد اعتاد الصادي والغادي الى اسكندرونة ان يمكث ليالي الشتاء في هذه الخانات حتى صارت تشبه الخانات · ويجلب الماء الى اسكندرونة على ظهور الحمير من

(١) اذا كان الحمل مائة الف قرش فالمائتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ولعل الچلبي مبالغ بهذا المبلغ · (٢) الكيس خمسمائة قرش · (٣) صحيحه مائة وخمسة أميال ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نبع في خارجها يدعى نبع القوافل(١) وقد اعتاد الداخلون الى هذه البلدة والخارجون منها ان يضربوا خيامهم قرب هذا النبع . وفي اسكندرونة وكلاء اوقناصل لسبع دول . اما القناصل الاصليون فمركزهم في خان الافرنج في حلب . ولما كانت الاسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها تجد بجانب جمركها مخازن عظيمة يقوم فيها تجار الافرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى انه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل كان من سفن الافرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ودام الاطلاق مدة غير يسيرة حتى كادت الغلايين لا ترى من كثرة النار والدخان . وتحيط باسكندرونة مستنقعات(٢) . ثم قمنا من هنا مع الركب فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة نحاذي الساحل تارة ونصعد في الجبال أخرى وكان المطر ينهمر علينا بشدة الى ان وصلنا الى بليدة تدعى بيلان(٣) .

(١) يدعى هذا النبع الآن رأس العين ومذ ماتقدمت اسكندرونة في العمران مدت الانابيب الحديدية من رأس العين الى البلدة وأُسيلت فيها المياه واستراحت الحمير من النقل .

(٢) كانت هذه المستنقعات ذات مساحة عظيمة تحيط باسكندرونة وتتخلل أحيائها وأزقتها وتجعل هواؤها وبيلاً والاقامة فيها خطرة لشدة الوبالة الناشبة في سكانها . دام هذا الحال الى أوائل القرن الحاضر اذ مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة كانت تنقل بها التراب من الآكام القريبة وتطمر بها تلك المستنقعات وظلت العناية بالطمر قائمة الى الآن حتى زال كثير منها وحسن المناخ عما قبل وازداد عمران الاسكندرونة .

(٣) الطريق بين اسكندرونة وبيلان وطوب بوغاز (٢٧ كيلومتراً) معبدة ومعتنى بها وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في اسكندرونة حيث الحرارة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصف بيلان ٠ — وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ٠ وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض وتتخللها أزقة ضيقة ٠ وهواء

والرطوبة شديدتي الوطأة فيمر من أمام رأس العين وعلى قيد غلوة منه المكان الذي يظن انه كانت فيه مدينة ميزياندروس ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر وفي الكيلومتر العاشر يرى على يمينه الطريق الصاعدة الى قرية صوغوق اولوق (علوها ١٠٠٠ متر وسكانها أرمن) وفي غربيها قرية النار كيزلك (علوها ٥٠٠ متر وسكانها أتراك) ويقصد اهل اسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف حيث يجدون المناخ الطيب والمنظر الجميل والحراج الغياء والفنادق الجميلة ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع وفي الكيلومتر (١١) مفترق الطريق الصاعدة الى قرية عاتق الارمنية (علوها ١٠٠٠ متر) وهي وان لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها كثنية كوزبل (١٦٠٠ متر) وقمة شاكشاك (١٨٣٥) وفيها مشاهد تأخذ بمجامع القلوب حقاً ٠ فالواقف اذا تطلع الى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته وبحيرة أنطاكية الزرقاء ومافي شرتها من الجبال والهضاب كجبل الزاوية والاعلى وباريشا وسمعان والكرد وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية واذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كألماطاغ (١٨٣٥) ودازتبه (١٧٠٧) وآق قيا (٢٥٠٠) ومغبر (٢٢٦٧) ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة انتشرت فيها الوف من قطعان الغنم والماعز ترعى الاعشاب والانجم الغضة وفي الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن آمانوس بسهول قيليقية الفسيحة والبحر الخضم وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته فزادت في روعة المشهد ٠ وهذا ماحمل ياقوت في معجم البلدان ان يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على انطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور اه ٠ هذا وفي الكيلو متر (١٣) يصل السائح الى بيلان ٠ وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه (علوها ٥٠٠ متر) يشطرها الوادي السحيق الفاصل مابين جبل اللكام وجبل الاحمر الى شطرين بنيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيلان جيد وماؤها عذب وصحة أهلها حسنة وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص وامامه خان عامر وفيها ايضاً حمام وحوانيت عديدة وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة فهي صالحة في الجملة للاصطياف ثم ان في الجبال التي تعلوها نجود اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها (١) ثم غادرنا بيلان وسرنا

دورها كما قال الچلبي في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ٣٠٠٠ ثلثاها من الترك والثلث من الارمن . لم يذكر جغرافيو العرب بيلان اذ لم تكن عامرة في زمنهم وربما هي التي كانت تدعى باب اسكندرون . قال ابو الفداء : باب اسكندرون في زماننا هو دربند بلاد سيس من جهة حلب وهو على دون مرحلة من بغراس وليس هناك مدينة بالاصالة ولا قرية وبين بغراس وباب اسكندرونة اثنا عشر ميلاً اهـ . قلت والعمران كان منحصراً بقلعة بغراس التي سمى العرب المضيق اوالدربند بها في حين ان الافرنج سموه باب سورية (Pylea Syriae) ومنه مرت في العصور الغابرة اكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام اوالخارجين منها . وبيلان تقع في مبدإ هذا المضيق العظيم الذي يفصل جبل اللكام عن جبل الاحمر وربما كان اول من سعى في عمران بيلان هو السلطان سليمان القانوني فقد أعجبته مكانتها من الوجهة الحربية والتجارية فبنى فيها في سنة ٩٦٠ هـ الجامع والخان اللذين ذكرهما أوليا چلبي ووضع جنوداً لحفظ المضيق وأسكن عدداً من التركمان جلبهم من الاطراف ومازال هؤلاء يزدادون وبيلان تتقدم في العمران وصارت ممر القوافل والجيوش بعد ان كان الممر بعيداً عنها قليلاً الى الشمال وصار اهل اسكندرونة يلجأون اليها في الصيف للتمتع بهوائها ومائها اللذين نوّه سائحنا بجودتهما . وما برحت بيلان في عهد بني عثمان مركزاً للقضاء الى ان وفدت في سنة ١٣٠٠ هـ ومابعدها جموع الارمن على اثر إخراجهم من بلاد الترك فاسكنت الحكومة الافرنسية طائفة منهم في موضع (قرق خان) في غربي سهل العمق وعلى طريق حلب المعبّدة فعمروا هذا الموضع الذي لم يكن الى ذلك الحين شيئاً مذكوراً وجعلوه بليدة حافلة بالدور والحوانيت والفنادق والمقاهي وغيرها ثم نقلت مركز القضاء اليه في سنة ١٣٤٢ هـ وتركت بيلان قاعدة لناحية فأفل نجمها من ذلك الحين .

(١) يعني الچلبي نجود جبل الاحمر المعروف هنا بقزل طاغ ويعده البعض تتمة سلسلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نحو الجنوب نصعد عقبات وتهبط أودية الى ان اجتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب(١) وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع «قلعة بغراس» وهي

آمانوس ويحسبه آخرون مستقلاً عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل وفروعه الغربية الممتدة من جنوبي بيلان الى ميناء عرسوز ورأس الخنزير قد اشتهر مثل جبل اللكام بما في منحدراته وآطامه من حراج الشجر الغضيض والمرابع الغضراء والمشاهد الجميلة والينابيع السارية مع شيء من الضباب الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . واكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الاسود والبطم والبلوط والقطلب والشوح والجوز وغيرها ويستخرج القطران من أشجار الصنوبر بكثرة . وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد . ويقطن النصيريون في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية بين اسكندرونة وعرسوز وأشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ويقيم التركمان في النجود والهضاب لاسيما حول غابات كسريك وقره كوز وجنكان وبش اولوق ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران وهم على الفطرة وصدق المعاملة وتربي قرى الارمن في جبل موسى غربي انطاكية الى الشمال دود الحرير ويصنع أهلها الامشاط من خشب القطلب . وفي سني الحرب العالمية لما أجبرت الحكومة العثمانية هؤلاء على الهجرة كما جرى لبقية الارمن اعتصموا بجبلهم بين الحراج وحاربوا الحملة التي هاجمتهم واستبسلوا الى ان توصلوا للاتفاق مع سفن الحلفاء فركبوها رجالاً ونساءً وانتقلوا الى ساحل مصر وهناك الفوا كتائب الانتقام الارمنية التي زحفت مع جيش الجنرال اللنبي سنة ١٩١٨ ودخلت مدن الشام وكان منها ماذكره المؤرخون .

(١) بعد مغادرة بيلان يظل السائح صاعداً في طريق طوب بوغاز الى الكيلو متر (١٦) حيث يلاقي مضيق بيلان او دربند بغراس كما كان يدعى « علوه ٧٠٠ متر » فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته والجبال والآكام المحيطة به فيحلق في سماء التفكير ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الأشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي والحملة الصليبية الاولى وجيوش المماليك والتركمان والتتار وابراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ الجيش العثماني بقيادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك الى ان افتتحها السلطان سليم بالامان حينما مر بهذا الطريق وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق . والقلعة صغيرة القد مخمسة الشكل مبنيـــة على هضبة اتخذت قضاءً تابعاً لايالة حلب وأُقيم فيها كتخدا وقائد جند الانكشارية ومحافظ القلعة وجنود وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة(١) على انها لانحرافهـا عن الطريق ليست

الســردار حسين باشا . وبعد المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ففي الكيلو متر ٢٠ موقع جقالي وفيه مخفر للدرك يؤمنون السابلة في هذه المسالك الوعرة وهنا يلمح السائر على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية تشرف على هذا الطريق .

(١) قال ابو الفداء : بغراس من جنـد قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها اعين ووادٍ وبساتين قال ابن حوقل وبغراس على طريق الثغور وكان بها دار ضيافة لزبيدة وهي في الجبل المطل على عمق حارم وفي معجم البلدان لياقوت بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ ذكرها البحتري في شعر مدح به احمد بن طولون الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب انطاكية في سنة ٢٦٤ وجرت بينهما حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بماجنت صدور رجال حين ضاق بها درب

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا وهي في يومنا خراب في الجملة على ان اطلالها لا تزال ماثلة وهي اكبر مما ذكره الچلبي كانت تسع زهاء الفي جندي وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير واربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفهـا وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار وكان لها قناطر علوها ١٨ متراً تأتي بالماء من الجبال الى القلعة والبناء الحالي اسلامي يتخلله بعض آثار للروم وللصليبيين . قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته : ان لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين منها ان الروم لما جاؤا بقيادة القيصر نيكوفورفوكاس في سنة ٣٥٨ هـ وغزوا بلاد الشام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عامرة وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفيّاحة لاسيما بالسنبل والمسك الرومي وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة فيحملونها ويبيعونها في بقية البلدان وقد يصلون بها الى استانبول . «للبحث صلة»

وصفي زكريا

حتى حمص وعرقة وطرابلس وجميع الساحل واعملوا فيها النهب والحرق والخراب عادوا ومعهم من السبي مئة الف صبي وصبية من ابناء المسلمين ولما ساقوا هؤلاء المساكين امامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس . ولما لم تكن الأقوات ووسائل الايواء والتدفئة كافية حصدهم الجوع والبرد والامراض وصارت سهول العمق مقابر لهم اه . قلت وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح انطاكية بخيانة اهل بغراس الذين بعد ان التجؤا الى انطاكية تقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول . وحينما جاء الصليبيون في الحملة الأولى اخذوا بغراس فيما اخذوه من بلاد الشام الشمالية وجعلوها مع تلعة دربساك وحارم وارتاح مخفراً امامياً لانطاكية الى ان جاء الملك الناصر صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فحاصر بغراس ودربساك وقاتلها بشدة حتى افتتحها بالامان الا انه بعد بضعة اعوام جاءها مقدم الأرمن ابن لأون فدخلها وظلا بيده تارةً وبيد الصليبيين أخرى الى ان استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً حينما فتح انطاكية عنوةً سنة ٦٦٨ . هذا ولم يبق من القرية في اسفل القلعة من العمران الذي ذكره الچلبي سوى ٣٠ — ٤٠ دار منتشرة على طول الوادي والعيون والبساتين التي ذكرها ابو الفداء يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان ولم أدر اذا كانوا كما قال الچلبي يتاجرون حتى الآن ببصل الزهور أم لا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net